

أولئك آبائي ....

عبد الحكيم الفيضي

عميد كلية مركز التربية الاسلامية

كنا نحب أساتيذنا من صميم فؤادنا حبا لا يحاكيه حب.... نوقرهم ونجلهم... نسمعهم ونطيعهم... نبني أفكارنا على أفكارهم... نقلدهم في كل شيئ... في الزي واللباس... في لغة اللسان والجسد... ونتابعهم في حركاتهم وسكناتهم... مثل ما كنا نسميه في ثقافتنا الهندية بنظام " عائلة الأستاذ " في جوهرها وأصولها المقبولة بحيث يصح أن يقال فيهم أنت أمّ ام أبٌ ما رأينا فيهما ... مثل حسنك قط يا شيخي يا خير الشيوخ.

واليوم بعد ما صرنا ندعى أساتذة ، كم نتمنى أن يعود ذلك الزمان حتى نتمتع بما تمتع به أساتذتنا !! كل شيئ بسبب وفرق فصرت أفكر في الفرق بين الزمانين أو الجيلين - جيلنا وجيلهم. (اذا قلنا اننا في جيل غير جيلهم) فرجعت الى تلك الأيام التي عشتها مع أساتذتي ، والزعماء الذين لقيتهم من بعيد أو قريب وأكاد أحبهم مثل أساتذتي ، فرأيت فيهم من الخصال الحميدة ما يلي.

١. **البعد عن الدنيا:** قرأت "فتح المعين" على الشيخ العلامة محمد بن الصوفي الكرنغفاري وعشت في كنفه سنتين فرأيته بعيدا عن الدنيا كل البعد. كنت يوما في بيته فأتاه ناس يستفتونه في معضلة اعيت الكثيرين..... سروا كثيرا بفتواه. شكروه بملامح وجوههم ولغة جسدهم. ثم مد عريفهم اليه يده المرتعشة بهدية. احمرّ وجه الأستاذ وتغير عما كان عليه من اللطافة ونظر إليهم نظرة تذيبهم. اعتذروه وسلموا عليه. وانا التلميذ الصغير الضعيف لم أبرح مكاني مذهولا معجبا.

أستاذنا الكبير ووالدنا الحنون الشيخ أبوبكر الكوتومالى سُرق كل ما عنده من الريال السعودي وهو يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يشعر بشيئ! رجع الى سكنه فارغ الحزام ، لم يتغير لونه ولم يجزع.

يتغير لونهم والدنيا تقدم اليهم...ولا يتغير لونهم وهي تأخذ عنهم..لا يتحيلون لجلب الدنيا..ويتحيلون للفرار منها...نعم يتحيلون للفرار من الدنيا... قدم المحسن العراقي ناجي القباني (كما يحكيه الشيخ حمزة كوتي مسليار الباقوي) مبلغا كبيرا للشيخ كى كى أبوبكر حضرة وهو يجمع التبرعات لصالح مركز التربية الاسلامية. اعتذر عن قبول شيئ من الزكاة لصالح جهة غير الاكباد الجائعة... فدهش الرجل وقدم له مبلغا وقال"هذه لك خاصة يا شيخ" ... رجع الأستاذ رحمه الله الى سكنه وقبل نزع القميص أمر بتحويل المبلغ الى حساب المركز. لم يقل كما قال ذلك الرجل الإزدي الذي استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم "هذا لكم وهذا أهدي لي" ولكن قال: جئت للمركز فكل ما اجبي للمركز.

٢. **سعة الافق ورحابة الصدر**: كان الشيخ الأستاذ محمد بن الصوفي هينا لينا حسن الخلق ذا وجه طلق. يرحب بالمرحبين ولا يفرق بينهم. اتاه ناس لا يوافقونه الرأي. استقبلهم وتبادل معهم حديثا وديا وودعهم.

قدماؤنا كان موقفهم قويا وما كان ابدا خيشوما يطير اذا عطس الآخر- الامر الذي جعلهم واثقين بأنفسهم لا تذوب بالتبسم ولا تتصلب بالعبوسة.

٣. **الدراسة المضنية**: كانوا يجددون علمهم وما كان يصح أبدا أن يقال فيهم: "لا يتعلم الجديد ولا ينسى القديم" ! كان الشيخ حسن (اخو الاستاذ شمس العلماء رحمهما الله) يلقى الحضور دائما بالجديد. و لا نكاد نسمع منه محاضرة مكررة، يبحث ويجتهد ويكتشف الجديد من الاستدلالات والحجج. وكنا نقطع الأميال حفاة للارتواء منها. كان رحمه الله متمكنا من كتاب الله. وهل هناك علم دون كتاب الله؟. تحدى المارق تشيكانور(المغتال؟) فشرط عليه التقيد بالقرأن. أجاب عن كل سؤال بالقرأن - بالقرأن وحده - حتى خرج المارق نفسه على شرطه غصبا عنه وصار يروى الحديث فبهت الذي كفر! عقل ثاقب وفهم حاضر في كتاب الله وأصول الفقه - هما جعلاه حجة وبرهانا على المبتدعين وأهل الردة والضلال.

وكان الأستاذ شمس العلماء رحمه الله يبذل قصارى جهده للبحث والدراسة. كنا نسهر أيام الامتحان فكنا نراه ساهرا (وإن كنا لا نراه ساهرا في الأيام العادية لأننا لا نسهر!!) .. نمر عليه وبابه شبه مفتوح فيدعونا ويأمرنا باحضار الشاي (وكنا نعد

هذه الخدمة فخرا وشرفا) فنحضر له الشاي وهو غارق في المطالعة لا يشعر بنا ولا بالشاي فيبرد الشاي ويطلب شايا حارا.!! وهكذا كان الأساتذة جلهم بل كلهم.

٤. **الذكاء الثاقب:** يُعتقد ان الذكاء فطري لا كسبي ولكن هذا الحكم بحاجة الى إثبات. فمن الذكاء ما لا يحضر الا بالتشحيذ وطول الممارسة فلا يثبت عدمه الا بعدهما.

أساتذتنا كانوا يشحذون عقولهم ويوظفونها أحسن توظيف. اذا اشكل عليهم امر صاروا يمعنون النظر فيه ويتسائلون فيما بينهم ولا يستحيون. وكان حديثهم اذا التقوا ، الدين والعلم وليس الدنيا والمشاكل الحركية.

الشيخ اي كي حسن رحمه الله سئل في مناظرة كيف تقولون ان خطبة الجمعة لا ينبغي ان تعالج قضايا الوقت وقد ورد في الحديث أنه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل فادع الله فدعا الله فمطروا من الجمعة الى الجمعة فجاء رجل وطلب منه الدعاء فدعا فامسك... الامر الذي يدل على ان الرسول صلى الله عليه وسلم عالج في الخطبة قضايا الوقت من المطر والقحط فاجاب الشيخ: بأن الحديث يدل على خلاف ذلك! اذ لم يعالج قضية الوقت في المرتين من تلقاء نفسه لانه لا يرى ذلك!! عقل اي عقل وقوة في الحجة !!

٥ ـ **خفة الروح ولين الجانب:** أساتذتنا كانوا هينين لينين خفيفي الروح.

شيخنا شمس العلماء استقال من عمادة الجامعة النورية. طلع في بعض المجلات ما لا يحمد... توترت الامور وتشائكت ... ونحن ضعاف الطلبة صرنا نبكي وندور على أبواب أعضاء المجلس. بدا الضوء الاخضر رويدا. وأخيرا نحن ثلاثة من ممثلي الطلبة زرنا بيت الأستاذ ورجونا منه العودة. بدا منزعجا مصرا وقال: لا أعود ولو رأيت كسفا من السماء ساقطا ! قلت حيلتنا وادركنا البكاء الشديد وعانقه عريفنا قائلا لن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي. اذن ورجع عن اصراره قائلا: ارى " الذهنية " فاترة (يريد به فتور النشاط عند الطلاب) ! الا في قليل منكم ـ اعود ان شاء الله علشان خاطركم فعلى بركة الله...

خفة في الروح .. ونزول على رغبة الطلاب..

كنا نحبهم و كانوا يحبوننا.. كانوا يعفون عن زلاتنا ويرحمون ضعفنا ويفرحون بلا حدود حين يروننا نترقى شيئا فشيئا متعثرين متهادين ويشجعوننا ويزرعون في قلوبنا الجرأة والثقة بالنفس.. وكم اقشعر من ذكرى تلك الملاطفة والتسلية التي تفضل بها الاستاذ الرباني الشيخ عيدروس رحمه الله حين تجرحت في مناقشة حادة مع احد المحاضرين في ورشة نظمت لنا ـ دفعة ١٩٧٩م في حرم الجامعة النورية.

٦ ـ **التحديث والعصرنة**: كان اساتذتنا ـ بخلاف ما يُظن عن كثير منهم يميلون الى تحديث الانظمة وأساليب الممارسة....

كان رئيس المحقيقن الشيخ احمد الكانياتي يحاول استعراض ما عنده من الكلمات الانجليزية في محاوراته وتوقيعاته ودروسه وكان يوقع بصفة Head Mudaris (كما يحكيه الاستاذ زيد محمد النظامي) وكان استاذنا محمد بن الصوفي يأمر شريكا لي في درس التفسير ان يترجم الآيات باللغة المليبارية الرشيقة حيث كان صاحبي من الذين يقرؤون الجرائد!!!

وكان ولي الله سي ام الماداووري يعين من يدرس بعض العلوم المادية لطلبة درسه بماداوور (كما حكاه لي صديقي محمد كويا الفيضي)

حقا كانوا يميلون الى العصرنة ولكن ليس على حساب الاصول والمبادئ ـ فهي التي ينبغي ان لا تتغير ولا تتبدل....

" أولـئك آبائي فجئني بمثلـــهم اذا جمعتنا يا جـليل المجامــــع
اصافيه ودي دونه كم تلومني بمن غير أوصاف العلى منه نابع"